الإنقلاب البعثي

كنت حاملا في نهاية شهري السابع يوم وقع الإنقلاب البعثي، وكنا نـسكن في بيت أهل زوجي في المزة ، ولم يبت في أمر تقاعده الاّ بعد جهـد، وكـان أنصار عبد الناصر لا يزالون أقوياء في دوائر الدولة يحاربوننا في لقمة عيشنا، وكنا قد أنفقنا المبلغ الضئيل الذي كان لنا في أحد المصارف باسم سلام ويوسف، ولم نستطع سحبه قبل سفرنا العاجل الى بلغاريا، على نشر الكتاب.. فقد جاء اليه من أسرّ اليه يومها بأن السفارة الروسية قد علمت بأن مؤامرة تدّبر لاغتياله من قبل مكتب السراج، وقام أصدقاؤه بترتيب سفره أولا ثم أتبعه أنا والصغيرين فيما بعد، وكنت حينذاك أيضا مثقلة بحملي في شهري الثامن، وسفري مربك له كثيرا في تلك الظروف الحرجة..

أما الآن فلأول مرة أنفصل عن عفيف ولا أستطيع اللحاق به، وكـان هـذا الفراق معذّب لي بشكل خاص فأنا لاأعرف كيف أتدّبر أمري، وكرامتي لا تسمح لي أن أكون عبئا على أحد، ومعي ثلاثة أطفال والرابع على الطريق، ولقد قطع راتب عفيف التقاعدي عني منذ قامت الثورة، وأنجبت ابنتي الصغرى في أيـار من ذلك العام.. وأسميتها رفاء أي الوفاق ولكن في المستشفى الذي ولـدت فيـه أسموها رفاه وهذا مالا ينطبق أبدا مع وضعي.. وأمضيت صيف ذلك العام فـي دربل حيث كان أصغر إخوتي يعلّم، واستطعت حين عدت الى دمشق أن أحصل على عمل في الجامعة بساعات إضافية في تدريس اللغة الإنكيزية فـي كليـات الطب والصيدلة والعلوم ومدرسة التمريض، وكنت على اتصال دائم بزوجي عن طريق ضابط يحمل رسائلنا في لفائف صغيرة نكتبها على ورق رقيق..

بقي الفريق متواريا ثلاثة أعوام وزرته في العطلة الصيفية واجتمع شـملنا في منزل عائلة أرمنية حيث كان الشيوعيون يخفونه عن الأنظار.. وعند قدومنا تركوا البيت لنا وذهبوا لقضاء الصيف في منتجع خارج بيروت..

كان عفيف ضيق الصدر سجينا في بلده، في مسقط رأسه لبنان، وكان يعيش في بيروت متخفيا لا يستطيع التجوال في الشوارع ولا زيارة الأهل منـذ مقتـل غسان جديد اذ منع بعدها بقرار رسمي من دخول لبنان.. لم يكن لعفيف دخل في اغتياله، بل كان قد أصدر حكما بالإعدام عليه في محاكمة علنية بسبب تورطـه في قتل المالكي، ولكنه لم ينصب نفسه جلادا ليقوم بتنفيذ الحكـم باغتيالـه فـي لبنان..

كان السراج يتبجح بأنه هو الذي فعل ذلك، وكان عفيف غاضبا منـه لأنـه يشكك بعدالة المحاكمة التي يرأسها والأحكام التي أصدرتها بحق قتلـة المـالكي حتى جعلت شكري القوتلي يخشى العودة الى سوريا خوفـا مـن أن يـضطره العسكريون الى التوقيع عليها وتنفيذها فيكسب عداء حزب له مكانته في سـوريا ولبنان.. فكانت كلمته المعروفة لرسول القوتلي، وهو زوج ابنة عمي الصغرى، جلال عقيل: "ان دوري ينتهي عند قوس المحكمة، وعلى رئيس الدولة أن يقرّها أو يرفضها حسب مايراه في مصلحة البلاد"..

ما كان عفيف يستسيغ النضال السلبي الذي اعتاده الشيوعيون، فلقد عـاش حياته في وضح النهار يغشى الحرب في فلسطين، ويقـاوم الإسـتعمار قديمـه وحديثه ويناضل الديكتاتوريات ويفضح نوازعها، فكان صدره يضيق وهو قـابع في ركنه يترجم كتابا لعالم كبير في الفيزياء عن الفرنسية ويتسلّى بحلّ مسائله.. ويهدّد بتسليم نفسه للسلطات اللبنانية أو السورية.. فكـان مجيؤنـا عـزاء لـه، وأمضينا نهارنا بتنظيف المنزل الكبير وإبادة الصراصير التي تسرح وتمرح فيه وتعشش مستعمراتها في أثاث مطبخه، وغلينا الشراشف وحمّمنـا الأولاد.. كـم ضحكنا يومها وتمازحنا وتزحلقنا على رغوة الصابون في الصالة الرحبة، حتى اذا جاء المساء وخلدنا للراحة في الأسرّة التي جمعناها معا وبيننا أطفالنا الأربعة أقص عليهم القصص كي يناموا فيطلبون المزيد في تلك الليلـة المميـزة وقـد

صحوا، أما أنا فقد وهنت قواي ورحت في سـبات عميـق.. كانـت الأسـابيع الماضية لسفرنا حافلة بالمعاناة فلقد أصبنا باسهال وبائي واحدا تلو الآخر وكنت أنا آخر من التقط العدوى، بالإضافة الى المتاعب التي صادفتها في دوائر الدولة لأحصل على اذن بالسفر.. استغرقت بالنوم ولم أصح الاّ فـي صـبيحة اليـوم التالي. كان الصغار نائمين ولكن الفراش خلو من عفيف، ذهبـت أبحـث عنـه فرأيته جالسا على ديوان يدخن وقربه منفضة ملأى بأعقـاب الـسجائر.. كـان غاضبا مني ولم يقبلني قبلة الصباح، وفي ملامحه حزن صامت وخيبة أمل قلت قبل أن يتفوه بكلام جارح يجعل حاجزا ما بيننا بضعة أيام:

-لم لم تصحيني؟ لو ناديت قلبي وأنا في نوم أهل الكهف يصحو ويستجيب لك.. أعرف ماذا يدور بذهنك الآن، ولا أريد أن أضيع هذه الأوقات الثمينة فـي تبرير ما جرى لي.. والله كان كل يوم يمر علي في غيابك أصحو على ذكـرك ومخدتي غارقة بدمعي.. ولم أصدق أذني حين بلغني أنك ترغب أن آتي اليـك، ولكن لسوء حظي أنني كنت مريضة أنا والأولاد ولم أشأ أن أخبرك بهذا حتى لا أشغل بالك.. كنت أذهب الى دوائر الدولة وفيها كل وجه مقيت وأنـا محمومـة ورأسي يدور أتحامل على نفسي كي أحصل عل إذن بالسفر.. وطوال الطريـق أحلم بلقيانا.. غلبني النوم، وهذا كل شيء!

تركته وخرجت لأعد طعام الإفطار.. فجاء الـى المطـبخ وقبلنـي قبلـة الصباح!..

كانت أياما سعيدة تلك التي أمضيتها في بيروت.. خرج من عزلته وأخذنا نتجوّل في بيروت ونسحب معنا أربعة أولاد.. ما كان أحد يعرفنـا فـي تلـك العاصمة المزدحمة.. نصادف في طريقنا جنودا أمريكيين، فرادا أو زرافات ممن جاؤوا يوم الإنزال ليملأوا الفراغ الذي حدث عنـد غيـاب الإسـتعمار القـديم باستعمارهم الحديث، جنودا لا يملأون العين لصغر سنهم وكأنهم طلاب مدرسـة

ثانوية متنعمون.. يحملون بواريدهم ويتمخطرون.. ألا ان الإستعمار لا يهزم أمة الاّ بمعونة الخونة من أبنائها كما كان يردّد عفيف.. بيروت ناصرية ولا تناسبنا، ودمشق بعثية وتلاحقنا.. كنا نخطط للسفر الى الجزائر بعد أن استقلّت، وطلـب مني حين أعود الى دمشق أن أتصل بـصديق كـي يتـصل بـدوره بالـسفارة الجزائرية لتسهل لنا السفر وتجد لعفيف عملا في الجامعة كمـدرّس للفيزيـاء.. ولكن عبد الناصر كان قد سبقنا اليها، وكان الثوارالذين كانوا يأتون الى شقتنا في مصر الجديدة والتي كان قد استأجرها من أحد وزراء عبد الناصر كمال رفعـت وهو لا يدري أنه مدير المخابرات، وهي فيلا من طابقين نسكن نحـن الطـابق الأرضي وهو الطابق العلوي.. كان الثوار الذين أسمع حديثهم وأنا في غرفة نوم سلام ويوسف وهم يجلسون على الديوان في الشرفة يتحدثون عما يعانونه مـن تصرف عبد الناصر، ومساعدته لهم بالأرز المسوس، وتحـريض الممرضـات الجزائريات اللواتي يعملن في القاهرة للتجسس عليهم.. وأسمع ما يقترحه عفيف عليهم في المطالبة أن تكون لهم ميزانية ثابتة للقيام بنفقات الثـورة والتحريـر.. هؤلاء الثوار أنفسهم الذين دفعوا ضريبة الدم يلاحقون من النظام الجديـد بعـد الإستقلال ويلقون في السجون أو يتشردون في المنافي!..

وبهذه المناسبة أذكر الموقف الذي وقفه عفيف من الثورة الجزائرية يوم كان قائدا للجيش وأبرم صفقة الأسلحة مع الإتحاد السوفياتي في مطلع عام 55 حـين طلبوا منه أن يكفلهم على أسلحة بعشرين مليونا، ففتح لهم المستودعات ليأخـذوا منها حاجتهم دون مقابل!..

ان الرسائل التي تبادلتها وعفيف منذ الإنقلاب البعثي في سـوريا توضـح بشكل دقيق هذه المرحلة التي عشناها.. ولقد نقلت الـى الكومبيـوتر وأنتظـر الفرصة المناسبة لأنزلها من موقعي على الإنترنيت..

* * *